الفصل الأول

تعريف الإستعمار

الإستعمار ظاهرة قديمة واكبت الحضارات القديمة والإمبراطوريات، وفي الغرب ظهر الإستعمار بظهور الدولة القومية الحديثة كما ظهر في عصر الارتياد والاستكشاف، ويقتصر الآن معنى الإستعمار على هذا اللون من الإمبراطوريات، فبرزت سيادة أوروبا بالاستحواذ على مستعمرات تقطنها شعوب استذلت بالقوة واغتصبت أراضي أهلها الوطنية.

الإستعمار يعني مد النفوذ السياسي لدولة ما إلى دولة أخرى هو ما اتفق عليه الباحثون واختلفوا فيما بعد ذلك. فقال فريق أن هذا النفوذ لابد أن يصحبه احتلال عسكري وقد يكون النفوذ السياسي سابقاً لهذا الاحتلال العسكري أو لاحقاً. ويذكر آخرون أن الإستعمار لا يحمل هذا الاسم إلا إذا توفرت ثلاثة شروط هي امتداد النفوذ، الاحتلال العسكري، الهجرة الجماعية[1].

ونستطيع أن نعرف الإستعمار بأنه قيام دولة بفرض حكمها أو سيطرتها السياسية أو الاقتصادية على شعوب وأقاليم أجنبية عنها. غير راغبة في التبعية المفروضة عليها... ويصحب السيطرة الإستعمارية قيام الدولة المستعمرة باستغلال هذه الشعوب. وفي معنى آخر هو الرغبة الجامحة في امتلاك البلاد غير الأوروبية واستيطان البيض فيها أو بسط النفوذ السياسي والاقتصادي والثقافي بقوة السلاح

(١) في الغزو الفكري، نزير حمدان (الطائف: مكتبة الصديق) ص٢٦٨

في بعضها... وكلمة إستعمار من الكلمات التي سادت في القرن التاسع عشر وما يعادلها اليوم فهي كلمة الإمبريالية[١].

والإستعمار أنواع ١- إستعمار سكني، ٢- إستعمار لإيجاد مراسي بحرية. فمثلاً إيطاليا تبغي إستعمار الحبشة ليسكنها ملايين الإيطاليين ويعملون فيها. كما يعملون في بلادهم التي أصبحت تضيق بهم وأكثر الإستعمار الإنجليزي للاستغلال والمواصلات والمراكز الحربية لتوريد الفحم للبواخر غير أن بريطانيا استعمرت أستراليا وكندا ونيوزلندة لإسكان المهاجرين الإنجليز الذين أصبحوا سكانها. لقد أقام الأسبان والبرتغاليون إمبراطوريات تجارية، أما البريطانيون والفرنسيون فشيدوا إمبراطوريات استيطان وكان الدافع الأكبر لهذه الحركة انتشار المذهب التجاري في بدء النهضة الحديثة لتوسيع نطاق التجارة واحتكار حاصلات المستعمرات واستغلال مواردها الطبيعية. واتجهت روسيا نحو الشرق والولايات المتحدة اتجهت نحو الجهات الغربية ولم تدخل ألمانيا وإيطاليا واليابان الإستعمار إلا في القرن التاسع عشر[٢].

كما يعني الإستعمار امتداد نفوذ لدولة ما إلى دولة أخرى على أن يصحب هذا النفوذ ضياع للشخصية المعنوية للدولة التي امتد إليها النفوذ واستغلال للأراضي والسكان لصالح الدولة صاحبة النفوذ[٣].

يمكننا أن نأخذ أهداف الإستعمار من إستعمار أفريقيا كنموذج لأهداف ودوافع الإستعمار في البلدان الأخرى ذلك أن الاختلاف من قارة إلى أخرى يظل من حيث الأهداف ضئيلاً.

لقد تكالب الإستعمار على القارة الأفريقية وهي القارة التي لم تقع في قبضة الإستعمار قبل ١٨٨٠م.

---

(١) أحمد إبراهيم دياب، لمحات من التاريخ الأفريقي الحديث، الطبعة الأولى (الرياض: دار المريخ، ١٩٨١م) ص١٠٧

(٢) نزير حمدان، في الغزو الفكري، مرجع سابق ص٢٦٣

(٣) المرجع نفسه ص٢٦٩

وفي الفترة من ١٨٨٠م - ١٩١٤م شمل الإستعمار كل القارة ما عدا الحبشة وكانت لهذا الإستعمار دوافع وأهداف وهي دوافع عامة ولكن جعلها الدكتور محمد إبراهيم دياب في كتابه - لمحات من تاريخ أفريقيا الحديث - كأنها خاصة بقارة أفريقيا لكن في تقديرنا أنها دوافع وأهداف عامة نورد هذه الدوافع والأهداف عن الكاتب المتقدم والكتاب.

أولاً: الدافع الديني:

انتهى الصراع بين المسلمين والإمارات المسيحية في شبه جزيرة ايبريا (الأندلس) أسبانيا، بخروج المسلمين منها نهائياً سنة ١٤٩٢م فأصبحت الأندلس بالنسبة للمسلمين الفردوس المفقود وبعد الانتصار المسيحي اتجهت القوات الأسبانية والبرتغالية إلى الساحل الأفريقي المقابل حيث سقطت بعض المدن الإسلامية الساحلية في أيدي الأسبان وحملت الأندلس لواء حركة دينية جديدة بهدف تطويق القوى الإسلامية والاتصال بملك الحبشة المسيحي للاشتراك في حركة تطويق الدولة الإسلامية والقضاء على مصدر قوتها الذي يتمثل في تجارة الشرق والسيطرة على شرايين الملاحة المؤدية إلى مصادر هذه التجارة. والدليل على أن الدافع الديني وراء الحركات الإستعمارية المبكرة في ذلك الوقت أن البابوية باركت تلك الحركات، بل بادرت بالتدخل لفض النزاع الأسباني البرتغالي وأدركت القوى الإسلامية الهدف من وراء هذا النشاط الإستعماري ومن ثم تصدت مصر المملوكية للعمل ضد الإستعمار البرتغالي وضد البرتغال ونشاطها ولكن هزمت البرتغال الأساطير المصرية في معركة ديو البحرية سن ١٥٠٩م واستأنفت الدولة العثمانية بعد دخول المشرق والمغرب الإسلامي الجهاد ضد البرتغال وأسبانيا وفرسان القديس والعامل الديني لم يكن إلا ستاراً أو تغطية لإقامة المستعمرات الأوروبية في أفريقيا وفي غيرها وكان الهدف منه هو اتخاذه وسيلة لتبرير الإستعمار وقد ثبت على مر الأيام أن الأمر لم يخرج من قناع يغطي به الإستعمار وجهه القبيح القميء.

ثانياً: الدوافع الاقتصادية:

كانت الثورة الصناعية تمضي بخطى سريعة نحو الازدهار الأمر الذي جعل الحاجة إلى المستعمرات ملحة جداً. وفي هذا يقول هويسن الاقتصادي البريطاني (إن الإستعمار كان يعزي إلى قوة اقتصادية جديدة كانت تعمل في معظم الدول الصناعية في أواسط أوروبا وغربها... وأن الدافع الحقيقي دائماً كان الجشع إلى المواد الخام الرخيصة والأسواق ومجال الاستثمار. ويواصل حديثه حيث يصل إلى أن هناك رأسمال فائض بحاجة إلى استثمار وقد تراكم هذا الفائض نتيجة للادخار الكثير إذن الإستعمار كان لحد كبير نتيجة لضرورة اقتصادية ذلك لأن التصنيع في الدول الكبرى وعلى الخصوص في كل من بريطانيا وألمانيا بعد وحدتها قد نتجت عنه مشاكل نذكر منها:

أ - ضرورة وجود أسواق لبيع الفائض من الإنتاج وذلك لأن الإنتاج بعد استعمال الآلات الحديثة أصبح إنتاجاً غزيراً أكثر من حاجة المنتجة.

ب- أدت الثورة الصناعية إلى تركيز الصناعات في المدن مما أدى بدوره إلى هجرة القرويين للمدن تاركين المزارع مما نتج عنه نقص في المواد الغذائية لسكان المدن الصناعية الذين ازداد عددهم.

ج- أحست الدول الصناعية بحاجتها الملحة إلى المواد الخام التي يوجد معظمها خارج أوروبا.

كانت هناك صعوبة في بيع المصنوعات في السبعينات من القرن التاسع عشر مما دعاها إلى إيجاد أسواق محتكرة لها لا ينافسها فيها أحد وكذلك إيجاد عملاء تجاريين في الخارج. لقد وجدت الدول الأوروبية حل مشكلاتها هذه في أفريقيا وآسيا حيث الأسواق المستهلكة لفائض الإنتاج والمواد الخام من مطاط وبترول وذهب وقطن وحديد وغيره ومواد غذائية. وكان أصحاب رأس المال يطالبون حكوماتهم في إلحاح شديد بامتلاك المستعمرات.

وقد أشار أحد المؤرخون إلى أن دوافع الإستعمار الأوروبي منذ عام ١٨٨٠م لم تكن هي الحصول على المواد الخام والأسواق فقط بل ترجع إلى ارتفاع الرسوم

الجمركية المستمر بين الدول الأوروبية بعضها البعض، حيث قامت بعض الدول على تدعيم اقتصادها بوضع الحواجز والقيود على بضائع غيرها لتشجيع إنتاجها المحلي بزيادة دخل الدولة.

ثالثاً: دوافع إستراتيجية:

التضامن بين انجلترا وفرنسا في أواخر القرن الثامن عشر في مستعمرات الدنيا الجديدة ومشكلات البحر المتوسط وتقسيم الدولة العثمانية (رجل أوروبا المريض) بين الدول الأوروبية كل هذا جعل بعض الأماكن مراكز هامة من الناحية الإستراتيجية فالجزائر هي أول إستعمار لأفريقيا في العصر الحديث من قبل دولة أوروبية ولعل الدافع الاستراتيجي من أهم الدوافع التي دفعت فرنسا في احتلالها لعام١٨٣٠م. فسواحل الجزائر تواجه الساحل الفرنسي على البحر المتوسط. وإنجلترا عدو لفرنسا ولها نفوذ في تركيا ومنطقة شرق البحر المتوسط ومصر وبالطبع تذرعت فرنسا بسبب آخر صوري ولم تشر للدافع الحقيقي الكائن وراء شعور فرنسا بأهمية موقع الجزائر وأهمية احتلالها لها في صراعها مع انجلترا. ويقال هذا عن أماكن أخرى في شرق القارة وغربها، بل وفي داخل القارة.. والمتتبع للسياسة البريطانية في حوض نهر النيل يلمس أثر الناحية الإستراتيجية في كل صفحة من صفحات هذه السياسة.

رابعاً: دوافع إنسانية:

اعتقد بعض الأوروبيين أن من واجبهم أن يأخذوا بأيدي الأفريقيين البدائيين والآسيويين المتخلفين وأن يغيروا نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية حتى يسايروا ركب المدنية الحديثة. وذهب البعض إلى القول بأن الإستعمار ما دام بالمدينة وقوانينها. فعلى الأوروبيين أن يضحوا براحتهم لنشر هذه النعم بين المحكومين.. وقد أطلق على هذه الفكرة مسئولية أو عبء الرجل الأبيض ولكن لورد اوليفر عضو مجلس اللوردات البريطاني كان صريحاً وواقعياً حين قال (ليس ثمة أمة استعمرت بلداً من أجل الإنسانية وحب الخير لأهله).

خامساً: الأوضاع الداخلية لدول أوروبا:

كانت عوامل قوة لتخرج إلى ميدان الإستعمار، كما كانت عوامل نفسية صاحبت الأوضاع الداخلية السيئة آنذاك ومن العوامل النفسية حب الاقتناء وإظهار القوة.

سادساً: تكوين المستعمرات السكنية:

صرحت بهذا الهدف كل من فرنسا وألمانيا إذ تعد المستعمرات كمصرف للزائد من السكان وتحدث الكتاب عن نوعين من المستعمرات، المستعمرات السكنية بغرض الإقامة الدائمة والمستعمرات الاستغلالية للأغراض الاستثمارية[١].

(١) انظر أحمد إبراهيم دياب، لمحات من التاريخ الأفريقي الحديث، الطبعة الأولى (الرياض: دار المريخ ١٩٨١م) ص١٠٩- ١١٤